٤ ـ الإعجاز في الاستخدام الحرفي

مثّل الاستخدام الحرفي المبحث الرابع من الإعجاز القرآني وأثره على مقاصد التنزيل الحكيم.

هذا الاستخدام قد تعدى حيزه الحرفي إلى التأثير على السياق النصي تأثيراً قد يغلب على المعنى العام بما يقتضيه مقام السياق.

وقد توزع هذا المبحث لخصائص ثلاث: لغوية، وصرفية، وبلاغية.

أ ـ خصائص لغوية:

لعل من أبرز السمات اللغوية للاستخدام الحرفي على الصعيد اللغوي ما نلحظه في:

١ـ الخصوصية الدلالية للحرف القرآني: تميز الحرف القرآني بوظيفة معنوية مكثفة بحيث لا يقوم شيء آخر مكانه من الأشياء التي قد ترادفه، أو تقترب من معناه. ومن أمثلة

هـذه الدقـة الادائيـة العاليـة أن الحـرف يسـتقل بمفـرده بطـرح مبـدأ عقـدي؛ وهـذا مـا نلحظـه في قولـه تعـالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ (هـود: ٦). هـذه الآيـة أفـادت تجسـيد صـفة مـن صـفات الربوبيـة وهـي «الـرزق»، إذ مـا مـن دابـة علـي الأرض مـن إنسـان وحيـوان إلا وقـد تكفـل الخـالق سـبحانه بتهيئـة أسـباب رزقهـا! فكمـا كـان هـو خالقهـا كـان هـو رازقهـا. وهـذا المعنـى الـدلالي لمفهـوم عطـاء الربوبيـة جسـده في الآيـة الكريمـة حـرف «علـى» تجسـيداً دقيقـاً، بحيـث لا يـؤدي هـذا شـيء آخـر يوازيـه في الوظيفـة المعنويـة؛ كـأن يُسـتخدم الظـرف «عنـد» بـدلاً مـن «علـى»، علمـاً بـأن السـياق يسـتقيم معنويـاً وعقـدياً وأسـلوبياً فيمـا لـو جـاءت الآيـة علـى هـذا النحـو: (ومـا مـن دابـة في الأرض إلا عنـد الله رزقهـا) بيـد أن التعمـق لكـلا السـياقين يكشـف عـن بـون شاسـع بينهمـا، ممـا يتنـافى مـع مقتضـى عطـاء الربوبيـة الـذي جسـدته الآيـة؛ لأن اسـتخدام «عنـد» لا يُلـزم الأداء، فقـد أقـول «رزقـك عنـدي ولكـني سـأحرمك منـه» أمـا لـو قلـت: «رزقـك علـيّ» فأنـا ملـزم أن أمـدك بـه، والله سـبحانه لا يلزمـه شيء، ولكنه ألزم نفسه بنفسه تفضلاً منه وكرماً.

٢ ـ **دقة الاستخدام العددي:** شكل الاستخدام العددي في السياق القرآني نموذجاً من نماذج الإعجاز اللغوي الذي نقف إزاءه مبهورين، ليس فقط لأن مناط الإعجاز حرف واحد، إنما أيضاً لأن هذا الحرف قد استقل بنفسه ببيان هدف التنزيل الحكيم الذي قد يحتمل أكثر من تأويل: من ذلك ما جاء في آيتي سورة الزمر: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (الزمر: ٧١). وقوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ (الزمر: ٧٣).

هاتان الآيتان الكريمتان تصوران جانباً من يوم الحشر الأكبر بوعيده ووعده، حيث يساق المجرمون الأشرار كما يساق أشقياء الدنيا إلى المعتقلات مشيعين بالخزي والعار. ويساق المتقون الأبرار إلى دار النعيم المقيم، كما يساق العظماء الوافدون على الملوك مشيعين بالإجلال والإكبار.

وعلى الرغم من أن كلتا الآيتين قد جاءتا على النسق التعبيري نفسه، إلا أن آية أهل النار قد خلت من حرف «الواو» في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ بينما وردت آية أهل الجنة متضمنة هذه «الواو»: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [1] فما الحكمة من مغزى وجود «الواو» في آية أهل الجنة؟!

ولعل أقرب الإجابات التي تتبادر إلى الذهن من ورود هذه «الواو» هي روعة وجلال الموقف، كما نوه عن ذلك بعض المفسرين: «والحكمة في زيادة الواو هنا «وفتحت» دون التي قبلها أن أبواب السجن مغلقة إلى أن يجيئها صاحب الجريمة فتفتح ثم تغلق عليه فناسب ذلك عدم الواو فيها بخلاف أبواب السرور والفرح فإنها تفتح انتظاراً لمن يدخلها[2].

(١) ذكر ابن كثير في تفسير هذه الآية: «لم يذكر الجواب ههنا، وتقديره: إذا كان هذا سعدوا وطابوا وسروا وفرحوا بقدر ما يكون لهم من نعيم. وإذا حذف الجواب ههنا ذهب الذهن كل مذهب في الرجاء والأمل»، إسماعيل بن كثير، مختصر تفسير ابن كثير، تحقيق، محمد علي الصابوني، (بيروت: دار القرآن الكريم، ١٩٨٣م)، ٢٣٢/٣.

(٢) حاشية الصاوي على تفسير الجلالين، (دار الفكر، ١٩٧٧م) ٣٨١/٣.

بيد أن الثعالبي قد ذكر سر استخدام هذه الواو بما يتلاءم مع الدقة الأدائية العالية للنظم القرآني وما يتفق ولغة العرب في استخدامها قائلاً: «.... ومنها واو الثمانية كقولك: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة، سبعة، وثمانية، وفي القرآن ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ (الكهف: ٢٢) وكما قال تعالى في ذكر جهنم: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ بلا واو، لأن أبوابها سبعة، ولما ذكر الجنة قال ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ فألحق بها الواو لأن أبوابها ثمانية، و«واو» الثمانية مستعملة في كلام العرب»[1].

٣ـ **غلبة المعنى الحرفي على السياق النصي**: حقق استخدام حرف الجر في التعبير القرآني تأثيراً قوياً غلب على السياق النصي، بحيث يتغير مضمون السياق تبعاً لتغير الحرف حتى مع الفعل الواحد؛ ومن شواهد ذلك قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾ في هذا السياق القرآني يتراءى استخدام حرفي الجر «إلى» و«على» مع الفعل «راغ» فما العلة من اختلاف هذا الاستخدام؟!

---

(١) عبد الملك أبو منصور الثعالبي، فقه اللغة وأسرار العربية، تحقيق سليمان البواب (دمشق: دار الحكمة، ١٩٨١م)، ص ٣٨٦.

وتبدو علة هذا الاستخدام من خلال أن الفعل يُقيّد معناه بالاستخدام الحرفي[1]، ومن ثمّ يلقي كل حرف بظلاله المعنوية على السياق؛ فعندما أريد في الآية الأولى الوصول للغاية جيء بحرف الجر «إلى»؛ لأن معناه الخاص انتهاء الغاية، والفعل «راغ» يتعدى إلى مفعوله في العادة بهذا الحرف. وعندما أريد معنى الاستعلاء الذي يوافق «راغ» الضارب المسيطر على ما يضرب جيء بحرف الجر «على» علماً بأن الفعل لم تتغير صورته، سواء في بنيته اللغوية، أو دلالته المعنوية.

وتطّرد هذه الخاصية للاستخدام الحرفي في آيات أخرى نجدها في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ (المطففين: ٣٠) ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ﴾ (الصافات: ١٣٧). مما يلفت الانتباه في هذا السياق القرآني اختلاف المؤدى الدلالي للفعل «مَرّ» باختلاف حرف الجر المرافق؛ فنلحظ في الآية الأولى عندما أريد بالمعنى المرور الجانبي الذي قد يقتضي الالتصاق وصل الفعل إلى مفعوله بحرف الإلصاق وهو «الباء» علماً بأن الفعل «مَرّ» يتعدى

(١) رشيد اللقاني، حرف الجر الزائدة (دار المعرفة الجامعية، ١٩٩م)، ص ١٦.

إلى مفعوله عادة بهذا الحرف. ولكن عندما أريد بالمرور المرور الفوقي الذي لا يراد به الالتصاق جيء بحرف الجر «على» ليلائم معنى الفوقية والاستعلاء، مع العلم أن الفعل لم يطرأ عليه أي تغيير في الاستخدامين[1].

ومن الخواص الأخرى للاستخدام الدلالي لحرف الجر: تشكيله وحدة تعبيرية مستقلة، وهذا ما يفصح عنه حرفي «على» و«في» إذ يستخدم حرف «على» غالباً في المواضع التي تدل على السمو والرفعة والاستعلاء، لذلك نجده كثير الاستخدام مع «الهدى» ليناسب العلو مقام الهداية الذي يسمو بالنفس البشرية عن الدونية، ويرقى بها إلى مدارج الخير والفلاح. ونتأمل قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (البقرة: ٥) وقوله سبحانه: ﴿وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الحج: ٦٧) ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (سبأ: ٢٤) ﴿أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴿١٢﴾﴾ (العلق: ١١، ١٢).

(١) المرجع السابق، ص ١٦.

أما حرف «في» فهو يتضمن معنى الانخفاض والدونية؛ ولذلك نجده كثير الاستخدام في هذا المعنى: ﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (مريم: ٣٨) ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ (القمر: ٤٧) ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ (غافر: ٢٥)

وينوه العلامة ابن قيم الجوزية عن هذه القيمة التعبيرية، والتناسق الدقيق بين معنى الحرف وسياق استخدامه: «قيل في أداة «على» سر لطيف، وهو الإشعار بكون السالك على هذا الصراط على هدى. وهو حق... فكان في الإتيان بأداة «على» ما يدل على علوه وثبوته واستقامته، وهو بخلاف الضلال والريب فإنه يُؤتى فيه بأداة «في» في الدلالة على انغماس صاحبه وانقماعه وتدسسه فيه»[1].

ومن المزايا الأخرى لحرف الجر في الاستخدام القرآني ما ينهض ببيان حيثيات قضية قد يبدو فيها التداخل المعنوي نظراً للتكرار اللفظي. كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (آل عمران: ٤٢).

(١) ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين، ٦/١.

تطرح هذه الآية الكريمة صورتين من الاصطفاء لمريم البتول: فما ماهية الاصطفاء الأول والثاني، وما وجه الاختلاف بينهما؟!

وتبدو الإجابة من ثنايا الآية نفسها، ومن خلال حرف الجر «على» الذي ينهض بمفرده ببيان هذه الاصطفائية، وذلك من خلال أن الاصطفاء الأول لم يرد فيه ذكر «على» وهذا دليل على أنه ليس اصطفاء طرف على آخر! بمعنى أنه اصطفاء عام، يشمل النساء والرجال في خصوصية هذا الاصطفاء الذي يعني: الاجتباء والاختيار، وهذا الاصطفاء قد يكون في الإيمان، والعمل الصالح، والخلق الطيب، والسلوك القويم.

أما الاصطفاء الثاني فقد جاء اصطفاءً خاصاً لورود حرف «على» الذي نوه عن اصطفائها على نساء العالمين، وبذلك أخرج عنصر الرجال من هذا الاصطفاء، ثم قصره من عنصر النساء على مريم العذراء لكونها الأنثى الوحيدة بالعالم التي كان إنجابها خرقا لسنن الإنجاب! فقد خضع هذا الإنجاب لإرادة مكوِّن لا لعنصرية التكوين!!

ب. خصائص صرفية:

وللاستخدام الحرفي في النص القرآني خواص صرفية، نهض بتكثيف أثر النظم القرآني في استجلاء آفاق الكتاب الكريم، من ذلك ما نجده على صعيد:

١- التصعيد المعنوي للاستخدام الحرفي:

رسم الاستخدام الحرفي في النص القرآني صورة ذهنية مكثفة ألقى بظلاله على الفكر والشعور، وشكل أثراً قوياً في تحقيق مقاصد القرآن الكريم كطاقة فاعلة في اتباع الأوامر، واجتناب النواهي! ولنرهف السمع لهذا الاستخدام: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (إبراهيم: ٧).

في هذا الخطاب القرآني يستوقفنا فعل « تأذّن» بدخول التاء على الفعل «أذن» إذ إن دخولها قد صعّد مؤدى الفعل ليصبح فحواه: «أخبر ربكم خبراً مؤكداً أو أقسم»[١] فدخول التاء نهض بوظيفة دلالية مكثفة ليس فقط لكونها أكدت مضمون الفعل « أذن» إنما أيضاً لكونها سارت به

(١) محمد حسن الحمصي، مفردات القرآن: تفسير وبيان، (دمشق، دار الرشيد، د.ت.)، ص ٢٥٦.

خطـوات أخـرى لترسمـه في الـذهن والشـعور بصـورة يقينيـة، لنهوضـها بمعنـى القسـم؛ لكـون القسـم عنـد البشـر يقتضـي الوجـوب والإنفـاذ عنـد الاسـتحقاق، فكيـف إذا كـان هـذا القسـم قـد صـدر عـن خـالق البشـر، ومسـبب الأسـباب؟! وهنـا يبهرنـا دور التـاء الـوظيفي في تأكيـد حيثيـة القسـم، ثـم رسـم مـا يترتـب عليـه مـن خـلال تلـك المقابلـة الصـارخة الـتي رسمتهـا الآيـة بـين مـا يـؤول إليـه حـال الشـاكرين، وشـدة عـذاب الجاحـدين، بحيـث يُصـعِّد القسـم صـورة هـذا النعـيم، وذاك العـذاب بصـورٍ شتى تذهب النفس فيها كل مذهب.

أيضاً من هذا الدور الوظيفي للاستخدام الحرفي ما يؤديه من خصوصـية دلاليـة تجلّـي مقاصـد القـرآن في حمايـة المجتمـع مـن الشرور والآثام.

٢ـ التضعيف الحرفي:

من المعلوم أن التضعيف الحرفي له دوره الرئيس في تشكيل بنية الكلمة، فضلاً عن زيادة معنى الفعل. غير أن هـذا الـدور الـوظيفي للتضعيف الحرفي على صعيد التعبير القرآني يـذهب بعيـداً في مـؤداه الـدلالي؛ وذلـك مـن ملاحظـة أن الحـرف المشـدد يـتردد أحيانـاً في

الألفاظ التي تحمل صوراً شتى من ألوان العنف والقوة، والإجرام بما تقتضيه مقاصد التنزيل، ومن ثمّ نجد أن هذا التضعيف يتردد في سياق: الذبح، القتل، الصلب، الحرق، إلخ ... من ذلك ما جاء في قوله تعالى على لسان فرعون بعد إيمان السحرة: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الأعراف: ١٢٤) فهذا التضعيف قد عمق مؤدى الفعل في الذهن والشعور ليصبح الفعل القبيح أكثر قبحاً، وأشد إيلاماً، بيد أن هذه الصورة القبيحة والمؤلمة تتصعد إلى ذروتها عندما يكون هذا التقتيل والتذبيح للأبناء ثمرات الأكباد ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ (الأعراف: ١٤١) ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ (البقرة: ٤٩) ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ (الأعراف: ١٢٧).

ولما كانت ماهية التضعيف الحرفي وفق السياق زيادة فاعلية الحدث، وتصعيد صورته في النفس قبحاً وإيلاماً فقد كان جزاء من يسعى في الأرض فساداً، ويحارب شريعة الله ورسوله عناداً وتكبراً، ليكون هذا العقاب جزاءً للمذنبين، وعظةً للمعتبرين: ﴿إِنَّمَا جَزَاؤُا الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا

أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ (المائدة: ٣٣)، كذلك كان جزاء المنافقين والمرجفين الذين يشيّعون الأخبار الكاذبة في المدينة: ﴿مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا﴾ (الأحزاب: ٦١).

والى جانب ذلك نجد هذا التضعيف الحرفي يتردد في سياق آخر من مواضع تصعيد الأفعال القبيحة المستنكرة، وهي تكذيب دعوة الرسل: فقد أنكر سبحانه على بني إسرائيل فعلهم القبيح: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ (البقرة: ٨٧).

ثم تتوالى صور التضعيف الحرفي للأحداث المفزعة، بيد أن هذه الصورة أشدها فزعاً: ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ (التكوير: ١٢). فنارُ جهنم يزداد حرها وهي تستقبل روادها، حتى يصل إلى درجة اللهيب والهيجان، جاء في مختار الصحاح: سعّر النار والحرب: «هيجها وألهبها» وليس هذا فحسب، بل تزداد الصورة هولاً وفزعاً عندما ترد هذه الصورة بصيغة الفعل المبني للمجهول «سُعِّرتْ» حتى يأخذ الفزع بالنفس كل مأخذ، لأن صورة الفعل تُقدر بقدر فعل الفاعل وجبروته!

ثم تطالعنا صورة أخرى من صور التضعيف الحرفي تقابل الصورة الأولى، لتفتح أمامنا آفاقاً مشرقة من خلال وظيفتها التكثيرية، ولنرهف السمع لهذا الخطاب الإلهي: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ (طه: ٨٢) ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ (ص: ٦٦) ﴿وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾ (غافر: ٤٢).

في هذه الآيات الكريمة ترتقي مهمة التضعيف إلى أجواء علوية، لأنها صادرة عن رب القدرة والمغفرة، لتشيع الأمل والرجاء في النفوس، ليس فقط من خلال شيوع المغفرة بل بكثرتها ودوامها، ومن ثمَّ تؤدي هذه الخصوصية حماية المجتمعات من الشرور والآثام؛ لأن الشرير إذا علم أن الله لن يغفر له تمادى في شره، ووسع دائرة شروره وجرائمه في آفاق مجتمعه.

جـ. خصائص بلاغية:

ومع مواكبة أثر النظم القرآني على الصعيد الحرفي نتلمس أثر هذا النظم أيضاً من خلال السمات البلاغية التي حققت قدرة أدائية عالية، من ذلك ما نجده في:

١ ـ **التوظيف المجازي لحرف النداء:** حقق حرف النداء في السياق القرآني وظيفة معرفية عمّق في النفس الإنسانية قضية عقدية تجلت في خشية الله، وسرعة الأوبة إليه، من ذلك ما نلحظه في حرف النداء «يا» الذي من خواصه أن يُنادى به القريب والبعيد معاً[1]. إلى جانب أن المنادى به غالباً ما يكون شخصاً مقرباً، أو مكاناً محبباً، بيد أن الشيء المستغرب أن ينادى الإنسان به: الويل والحسرة: ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٤) ﴿وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ (الصافات: ٢٠) ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُّ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ (الزمر: ٥٦) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ (الأنعام: ٣١).

ولدى إنعام النظر في هذه الآيات يتبادر سؤال: لماذا يستدعي الإنسان الويل أو الحسرة في هذا الموقف العصيب؟ وهل هي قادرة على العون والإنقاذ؟! والإجابة يجسدها هول الموقف نفسه على سبيل الحقيقة لا المجاز! لأن المنادي لا يجد بجواره سواها بعد أن تخلى عنه الأهل والأعوان!! فيلجأ إلى تشخصيها، وبثها همومه وأحزانه علها تخفف عنه لوعته ؟!

---

(١) جمال الدين بن هشام الأنصاري، مغني اللبيب، تحقيق مازن المبارك، محمد علي حمد الله، ط٢، (دار الفكر، د.ت.)، ٤١٣/١.

وهنا تتجلى روعة الأداء القرآني في تحقيق أهداف التنزيل الحكيم من خلال تمثل النفوس مرارة هذا الموقف العصيب، فترتدع وتؤوب، وتعقد صلحاً مع الله قبل فوات الأوان!

٢ـ البعد الدلالي للتقديم الحرفي: أفصح هذا الاستخدام عن سبر أغوار النفس الإنسانية في خيرها وشرها، وهذا ما تراءى في قوله سبحانه: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ (البقرة: ٢٨٦).

هذه الآية تبدى منها ملمحان دلاليان، الأول: بتقديم الجار والمجرور على الفعل! وهذا التقديم حمل خصوصية معنوية لا تتحقق فيما لو جاء التعبير على النسق اللغوي المألوف، بتقديم الفعل على الجار والمجرور (ما كسبت لها، وما اكتسبت عليها) ومن ثمّ كان تقديم ما حقه التأخير يحمل صفة القصر، أو الحصر بالمقصور عليه، يختص به ولا يتعداه لسواه، ومن ثمّ حقق هذا التقديم مؤداه الدلالي بتعزيز القاعدة الإيمائية ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (الأنعام: ١٦٤).

أما الملمح الآخر فنجده في دقة استخدام «لها» مع الكسب، و«عليها» مع الاكتساب؛ لأن الكسب ـ عادة ـ

يستخدم مع الخير، وعليه ستجني النفس وحدها الثمار الخيّرة التي غرستها يداها، أما الاكتساب فيستخدم مع الشر، بمعنى أن عليها وحدها يقع وزر ما اقترفته من آثام. وهذا التقابل المعنوي بين الكسب والاكتساب له مغزاه الدلالي، من خلال صيغة الاشتقاق اللغوي، على الرغم من أن المادة الاشتقاقية لكل منهما واحدة، غير أن فعل «كسب» لا يتطلب أداؤه الجهد والمكابدة. وعندما يتقيد استعمال هذا الفعل في مجال الخير؛ فمعنى ذلك أن الأفعال الخيّرة وليدة الفطرة البشرية السوية التي فطرت على الخيرية، ومن ثم جاء الدين الإسلامي يعزز هذا الجانب ويرعاه، حاثاً على الخير بكل سبله، ناهياً عن الشر بكل صوره ومنعطفاته، ومن هنا كان الكسب سبيلاً إلى الخير.

أما فعل «اكتسب»، فأداؤه يتطلب الجهد والمكابدة، وهذا المؤدى الدلالي يجسده زيادة الألف والتاء في الفعل طبقاً لما يقوله النحويون: كل زيادة في المبنى دلالة على زيادة في المعنى؛ وهذه الزيادة في المعنى حملت في ثناياها طاقة جهد عضلي ونفسي لافتعال شيء لا يتأتى تلقائياً وفق الفطرة الطبيعية، ومن ثمّ كان استخدام «الاكتساب» منطلقاً

للأفعال السيئة التي تقتضي مغالبة الفطرة لأداء هذه الأفعال! كمن يود أن يفعل شيئاً مريباً، فهو يكابد صوراً شتى من المعاناة الحسية والنفسية.

وهكذا باطلاعنا على نماذج الاستخدام الحرفي نكون قد تمثلنا أثر النظم القرآني بعمومه وخصوصه على بيان مقاصد التشريع في كتاب العربية الأكبر، ومعجزتها البيانية الخالدة.

obeikandl.com

الخاتمة

لقد كان من البدهي أن تتجه العقول إلى المعجزة القولية الكبرى التي أفحمت الفصحاء والبلغاء عن محاكاتها والإتيان بآية واحدة منها، مما دعا أن تسود المجتمع الإسلامي حركة من التفكير تدعو للنظر في أسلوب القرآن الكريم، ومعانيه، والوقوف على مواطن الإعجاز فيه.

وهذه الدراسة تنضوي في ثنايا هذه المنظومة المعرفية التي عرضتْ لهذا النظم، وكانت محصلتها أن النظم القرآني هو القول المعجز الذي اتضحتْ آثاره في القرآن كله، محققاً الحكم التشريعي، والتآلف اللفظي، والتناسق المعنوي، والتشكيل الصوتي الإيقاعي، مما جعل هذا القرآن ذا نسيج خاص، كل كلمة لها وظيفتها الدلالية والإيقاعية، «بحيث لو استبدلنا بها كلمة أخرى فسد المعنى، وفقدت العبارة سر إيحائها، وذلك ما يحسم الخلاف في قضية اللفظ والمعنى»[1].

وعلى هذا فقد حقق النظم القرآني صورة تعبيرية فريدة لم يُعهد لها نظير في العربية؛ وقد وفق الرافعي في التنويه عن سر

(١) عائشة عبد الرحمن، التفسير البياني للقرآن الكريم، ط ٣، (القاهرة: دار المعارف، ١١٦٨م)، ص ٨.

التعبير القرآني وجلال إعجازه: «نزل هذا القرآن بهذه اللغة على نمطٍ يُعجز قليله وكثيره ... وهو في كل جزء من أجزائه، وفي أجزائه جملة لا يُعارض بشيء إلا إذا خلقت سماء غير السماء، وبُدِّلت الأرض غير الأرض، وإنما كان ذلك لأنه صفّى اللغة من أكدارها، وأجراها في ظاهرها على بواطن أسرارها ... ولهذا بُهتوا حتى لم يتبينوا أكانوا يسمعون بها صوت الحاضر، أم صوت المستقبل، أم صوت الخلود، لأنها هي لغتهم التي يعرفونها، ولكن في جزالة لم يمضغ لها شيح ولا قيصوم، ورقة غير ما انتهى إليهم من أمر الحاضرة»[1].

وإلى جانب اطلاعنا على هذا النظم القرآني المعجز فإن الدراسة قد طرحت لوناً آخر من وجوه الإعجاز تجلى في أن كل جزئية من جزئيات التعبير القرآني حتى على صعيد الاستخدام الحرفي كانت لها خصوصية دلالية جلّت آفاق الكتاب الكريم وعمقت مقاصده؛ إذ أفصحت في مجملها عن مفاهيم عقدية رسخت العقيدة، وصححت مسارها، وقضايا اجتماعية نظمت حياة الفرد والمجتمع، وظواهر لغوية أبانت عن بلاغة التعبير في لغة التنزيل الحكيم.

(١) مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ط ٨، (بيروت: دار الفكر العربي، د.ت.) ص٧٤.

وهـذا الجانـب مـن الإعجـاز التشـريعي - إن صـح هـذا التعـبير - قـد تجلـى مـن خـلال النمـاذج العديـدة الـتي طرحتهـا الدراسـة، وتـآلف فيهـا الإعجـاز اللغـوي مـع التشـريعي في وحـدة واحـدة مـن التعـبير لبيـان أثـر القـانون الإلهـي في حياتنـا المعاصـرة، بوضـع ضـوابطها وتنظيمهـا لتـتم مهمـة الاستخلاف، وإعمار الحياة بمنهج الله.

ومـن منطلـق هـذه الثوابـت سـيبقى القـرآن المعجـزة اللغويـة الخالـدة، الماثلـة في نظمـه وتشـريعه، وقـد هيـأ الله لهـذا الـنظم الحفـظ، ليبقـى الإعجـاز محفوظـاً بـالحفظ، ليكـون هدايـة السـماء لـلأرض، يـنير للبشـرية مسـالك الحيـاة الفاضـلة، لتنـتظم حركـة الحيـاة بقـانون السماء.

رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا

ربنا وتقبل دعاءنا ، والحمد لله رب العالمين

د. رجاء بنت محمد عودة

أستاذ مشارك في قسم اللغة العربية وآدابها

كلية الآداب – جامعة الملك سعود

obeikandl.com

ثبت المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.

الأنصاري، جمال الدين بن هشام (ت٧٦١هـ):

٢. «**مغني اللبيب**»، تحقيق مازن المبارك، محمد علي حمد الله، ط٢، (دار الفكر، د.ت.).

البخاري، الإمام محمد بن إسماعيل (١٩٤-٢٥٦هـ):

٣. «**صحيح البخاري**»، (دار الفكر، ١٩٨١م).

البيضاوي، عبدالله بن عمر (ت ٦٧٥هـ):

٤. «**أنوار التنزيل وأسرار التأويل**»، (بيروت: دار الجيل، د.ت.).

الثعالبي، عبدالملك أبومنصور (٣٥٠-٤٢٩هـ):

٥. «**فقه اللغة وأسرار العربية**»، تحقيق سليمان البواب، (دمشق: دار الحكمة، ١٩٨٤م).

الجرجاني، عبدالقاهر (ت ٤٧١هـ):

٦. «**دلائل الإعجاز**»، تحقيق محمود شاكر (القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٨٤م).

ابن الجوزي، عبدالرحمن (٥٠٨-٥٩٦هـ):

٧. «**زاد المسير في علم التفسير**»، (المكتب الإسلامي د.ت.).

الجوزية، ابن قيم (٦٩١-٧٥١هـ):

٨. «**مدارج السالكين**»، تحقيق محمد حامد فقي، (مطبعة السنة المحمدية، ١٩٥٦م).

الحمصي، محمد حسن:

٩. «**مفردات القرآن: تفسير وبيان**»، (دمشق: دار الرشيد، د.ت.).

الخطابي، حمد أبوسليمان (٣١٩-٣٨٨هـ):

١٠. «**بيان إعجاز القرآن**»، تحقيق محمد خلف الله، محمد زغلول سلام، ط٣، «ثلاث رسائل في إعجاز القرآن»، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٦م).

الرافعي، مصطفى صادق:

١١. «**إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**»، ط٨، (بيروت: دار الفكر العربي، د.ت.).

الرماني، علي بن عيسى (٢٩٦-٣٨٦هـ):

١٢. «**النكت في إعجاز القرآن**»، تحقيق محمد خلف الله،

محمد زغلول سلام، ط٣ «ثلاث رسائل في إعجاز القرآن»، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٦م).

السيوطي، جلال الدين (٨٤٩-٩١١هـ):

١٣. «**الإتقان في علوم القرآن**»، ط٣، (القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٥١م).

الصابوني، محمد علي:

١٤. «**صفوة التفاسير**»، (بيروت: دار القرآن الكريم، ١٩٨١م).

الصاوي، أحمد بن محمد (١١٧٥-١٢٤١هـ):

١٥. «**حاشية الصاوي على تفسير الجلالين**»، (دار الفكر، ١٩٧٧م).

ضيف، شوقي:

١٦. «**تاريخ الأدب العربي - العصر الإسلامي**»، ط٦، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٣م).

الطبري، محمد بن جرير (٢٢٤-٣١٠هـ):

١٧. «**جامع البيان في تفسير القرآن**»، (بيروت: دار الجيل، القاهرة: دار الحديث، ١٩٨٧م).

عبدالرحمن، عائشة:

١٨. «**الإعجاز البياني القرآني**»، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧١م).

١٩. «**التفسير البياني للقرآن الكريم**»، **ط٣**، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٨م).

عمر، أحمد مختار:

٢٠. «**قاموس القرآن الكريم (لغة القرآن)**»، (الكويت: مؤسسة التقدم العلمي، ١٩٩٣م).

ابن فارس، أحمد:

٢١. «**مقاييس اللغة**»، تحقيق عبدالسلام هارون (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٣٦٦هـ).

القاسمي، محمد جمال الدين (١٢٨٣-١٣٣٢هـ):

٢٢. «**محاسن التأويل**»، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، ط٢، (بيروت: دار الفكر، ١٩٧٨م).

قطب، سيّد:

٢٣. «**التصوير الفني في القرآن**»، (بيروت: القاهرة، دار الشروق، ١٩٨٢م).

ابن كثير، إسماعيل بن عمر (٧٠١-٧٧٤هـ):

٢٤. «**مختصر تفسير ابن كثير**»، تحقيق محمد علي الصابوني (بيروت: دار القرآن الكريم، ١٩٩٣م).

الكلبي، محمد بن أحمد بن جزي (٦٩٣-٧٤١هـ):

٢٥. «**التسهيل لعلوم التنزيل**»، تحقيق محمد عبدالمنعم يونس، إبراهيم عوض (القاهرة: دار الكتب الحديثة، د.ت.).

اللقاني، رشيدة عبدالحميد:

٢٦. «**حروف الجر الزائدة**»، (دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٠م).

المبارك، محمد:

٢٧. «**دراسة أدبية لنصوص من القرآن**»، (بيروت: دار الفكر، ١٩٧٣م).

ابن نبي، مالك:

٢٨. «**الظاهرة القرآنية**»، ترجمة عبدالصبور شاهين، ط٤، (دمشق: دار الفكر ١٩٨٧م).

النحوي، محمد بن يوسف أبوحيان (٦٤٥-٧٤٥هـ):

٢٩. «**البحر المحيط**»، (الرياض: مكتبة النصر الحديثة، د.ت.).

٣٠. دائرة المعارف الإسلامية، لجنة مؤلفين، (القاهرة: شركة سفير، د.ت.).
٣١. لسان العرب، محمد جمال الدين ابن منظور (٦٣٠-٧١١هـ)، (دمشق: مكتبة النوري،د.ت.).
٣٢. مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر الرازي (ت ٦٦٦هـ)، (دمشق: دار الحكمة، ١٩٨٣م).
٣٣. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي (كتاب الشعب، دار ومطابع الشعب، د.ت.).
٣٤. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، إشراف عبدالسلام هارون، (مطبعة مصر، ١٩٦١م).